مخطوطات الجامع الكبير في القيراون

فيرنر شفارتس

من يَزُر القيروان اليوم يجد نفسه في مدينة متوسّطة الحجم، وإن كانت مقرّ الولاية التي تحمل اسمها وسوقا لتصريف منتجات الزراعة المحليّة. لا تكاد القيروان تكون اليوم أكثر من ذلك، ولا يمكن مقابلتها بتلك المرافئ النشطة الحركة على سواحل تونس التي هي أشبه، من حيث نشاط الأعمال والعلاقات الواسعة بالعالم، بنظائرها الواقعة على سواحل المتوسّط في البلاد الأخرى.

لكنّ القيروان لم تكن دائما على هذا التواضع، وإنّما كانت، منذ أن فتح العرب شمال إفريقيا، مركز القسم الغربي من العالم الإسلامي الذي تأسّس في القرن السابع بعد الميلاد. وقد بلغ نفوذ القيروان حدود مصر شرقا وجبال البيرينيه شمالا عندما كانت عاصمةً لولاة الأمويين والعبّاسيين. ثمّ كانت الأحداثُ التي هزّت شرق العالم الإسلامي، واستقلالُ الأمويين بالحكم في الأندلس، والفتنُ الكثيرة التي شملت القيروان أيضا، المركزَ الإسلامي في شمال إفريقيا. واستلم بنو الأغلب الحكم في القيروان عام 184 هـ/800 م، وبسطوا سلطانهم على البلاد. وقد استمرّت دولتهم إلى عام 296 هـ/909 م. ثمّ حكم من بعدهم الفاطميّون وبنوزيري قرنا ونصف قرن. وقد ازدهرت القيروان ازدهارا قويا وبلغت أوج رقيّها في مدّة حكم هؤلاء جميعا، رغم ما كان يحدث أحيانا من تقلّبات وحروب وثورات.

وكان سكّان القيروان أجناسا: بربرا وعربا وأفارقة وفرسا ويهودا، كما كان فيهم مِن خَلَفِ البيزنطيين والرومان الذين سكنوا البلاد قديما. وقد تأسّست القيروان في حوالي 50 هـ/670 م، وكانت في بداية أمرها معسكرا، ومازالت تنمو إلى أن صارت قاعدة هامة للجيوش، بلغت رقعتها في القرن التاسع الميلادي ثلاثة أضعاف رقعة المدينة الحالية. ويُقدَّر أنّ سكّان القيروان كانوا عندئذ أكثر كثيرا من مائة ألف. ولم تكن من حاجة، كما يظهر، إلى حماية القيروان من الغزاة، فظلّت المدينة زمانا طويلا بدون سور وبدون تحصينات. وبقيت القيروان إلى منتصف القرن



الجامع الكبير بالقيروان

الحادي عشر المحورَ الرئيسي الذي دارت حوله السياسة الإسلامية في شمال إفريقيا، وأهمَّ مدينة في البلاد، رغم منافسة المهدية التي صارت زمنا عاصمةً للفاطميّين في بداية أمرهم، ورغم منافسة تونس ونزاعها إلى أن تكون مركز السياسة وخليفةَ قرطاجة القديمة القريبةِ أطلالها، ورغم أنّ مقارَّ للحكم قد تأسّست مراراً بالقرب من القيروان.

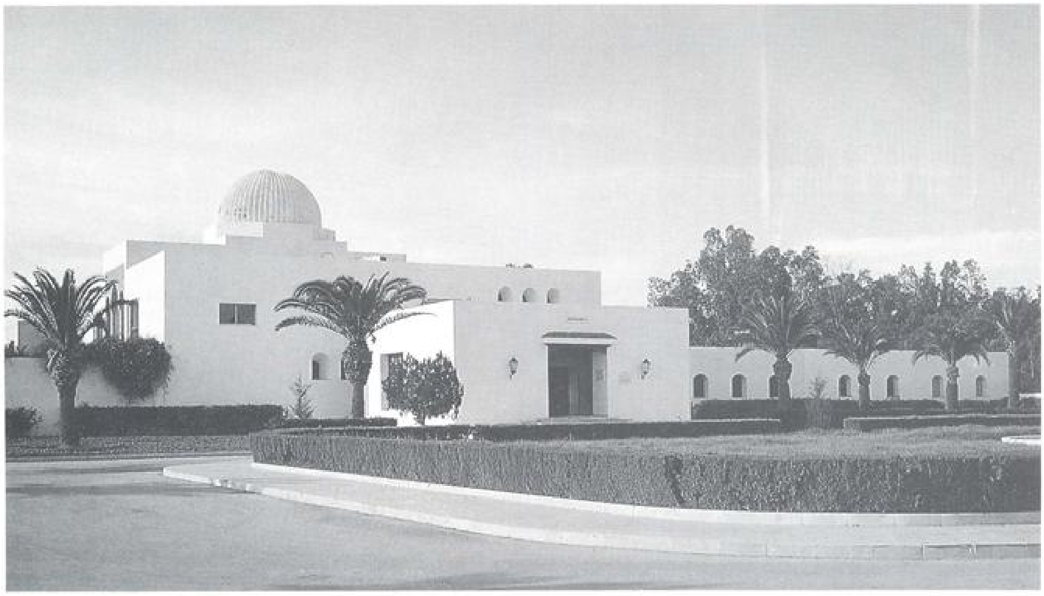
ازدهرت التجارة والصناعة والفنون والعلوم بالقيروان ازدهارا لم يسبق له مثيل. وكان بنو الأغلب، على غرار خلفاء بني أمية، يدعمون فروع العلم القائمة على التراث الإغريقي، فأقاموا بالقيروان مؤسّسة علمية مستقلّة تُدعى بيت الحكمة. وكان لبيت الحكمة هذا تأثيرواسع؛ وربّما بلغ تأثيره مدرسة القيروان الطبية الشهيرة التي كان الطبيب أحمد بن الجزّار من أبرز أعلامها، مع أنه جاء في وقت متأخر نسبيا (توفّي في عام 395 هـ/ 1004 م). وقد نقل قسطنطين الإفريقي (عاش من نحو 1015 إلى 1087) في النصف الثاني من القرن الحادي عشر أهمّ مؤلّفات هذه المدرسة إلى مدرسة سالرنو الطبيّة بأن ترجمها أو صاغ منها للتقريب، فكانت أعماله بدايةً لأولى حركات نقل العلوم العربية إلى أوروبا وترويجها فيها واستيعابها استيعابا واسعا.

لم يكن المركز الفعلي للحياة الفكرية بالقيروان بلاطَها، وإنّما كان حلقاتِ العلماء الذين اشتغلوا، في الدرجة الأولى، بالعلوم الإسلامية الأصلية، أي بالقراءات، والتفسير، وعلم الكلام، وعلم الحديث، واللغة، والنحو، والجغرافيا، والتاريخ، وعلم الرجال، والفقه.

وكان جامع عقبة بن نافع محور نشاط المدينة: فيه تقام الصلاة، ويلقي الحاكم أو من ينوب عنه خطبة الجمعة. وفيه تعقد حلقات الدرس، ويتناقل الناس الأخبار، وتدور المناقشات العلمية، ويُقضى بين الخصوم. وفيه أيضا يجتمع الناس للبيعة، كما يجتمعون لإعلان العصيان على الحاكم الذي استثار عداوتهم. وكان جامع عقبة بن نافع منتدى هاما للعلماء وتلاميذهم، يجتمعون حلقاتٍ في قاعة الصلاة الكبرى وفي الأروقة التي من حول الصحن، ويعقدون المجالس التي تدور فيها المناقشة ويجري الجدل، ويحتجّ كلٌّ لرأيه، كما كان يحدث كثيرا في مساجد القيروان الأخرى وفي بعض دورها الخاصة. ويظهر أنّ أصحاب المذاهب المتباينة كانوا جميعا لا يُمنعون من دخول الجامع وشهود المجالس والاحتجاج لآرائهم، وظلّوا على ذلك زمانا طويلا.

كان الفقهاء وغيرهم من العلماء يكوّنون وتتخذ جماعة قائمة بذاتها، منفصلة عن السلطة انفصالاً شبه كامل؛ وكان لأهل العلم هؤلاء حريّة الاتّصال بأقصى بلاد الإسلام لطلب العلم وتبادل المعرفة، كلٌّ على قدر إمكانيّاته وعلى حسب رغبته. ولم تخصّص الدولة للعلماء من الرواتب ما يسدّ الحاجة، ولا لطلبة العلم، فكانوا يكسبون قوتهم كما

مقر مركز الدراسات الإسلامية بالرقادة





مصحف فاطمة حاضنة المعزّ بن باديس



كتاب الجهاد من المدوّنة رواية
سحنون بن سعيد

اتّفق، فيعملون في الصناعة والتجارة إذا لم يكن يجرى عليهم من بعض الأوقاف أو الحُبُس.

لم تنقل لنا كتب التاريخ من ذلك الزمان البعيد إلاّ نُتَفا من أخبار وأجزاء من معلومات، وخاصة فيما يتعلّق بأمر العلماء. لكنّ لدينا، غير كتب التاريخ، وثائق نستمدّ منها أخبار أولائك العلماء على نحو مباشر وثابت؛ إنّها الدفاتر والأوراق التي كتبوها بأيديهم أو كلّفوا غيرهم بكتابتها والتي كانت جزءا من مستندات التعليم بالقيروان. وقد حُفظت هذه الدفاتر والأوراق في الجامع الكبير، وما زالت أجزاء كاملة منها موجودة إلى الآن. وكُتبت هذه المستندات في الفترة مابين القرنين التاسع الميلادي والحادي عشر، وهي حاملة لمعلومات فريدة، خاصّة حول الظروف الخارجية التي أحاطت بممارسة العلوم الإسلامية في ذلك الوقت.

إنّه حقّا لمن سعيد الحظ وحسن الصدفة أن ظلّت مخطوطات القيروان محفوظة إلى الآن، في حين أنّ كلّ المكتبات القديمة التي تخبر المصادرُ عنها حُرقت ونُهبت، أو تفرّقت كتبها وضاعت؛ وقد كان في بعضها من المجلّدات ما لا تحويه الآن بعض المكتبات الجامعية الحديثة التأسيس. أمّا الجامع الكبير بالقيروان، فقد احتفظ، رغم كلّ الظروف غير المواتية، بمخطوطاتٍ يرجع أقدمها إلى القرن التاسع والقرن العاشر الميلاديين. فهذه مادّة قيّمة فريدة تُمكّن من تعرّف تاريخ مكتبة القيروان، وتُيسّر البحث في مجالات هامة من مجالات الحياة الفكرية كما كانت في القيروان، عاصمة المغرب الإسلامي القديمة.

وعلى غرار ما كان متّبعا في المدرسة الإسلامية التي نشأت في الشرق في القرن العاشر، وُقفت كتب القيروان في سبيل الله ودُوّن عليها من الملاحظات ما يثبت ذلك. وليس في هذه الملاحظات اسم الواهب أو المحبّس وحسب، وإنّما فيها أيضا تاريخ وضع الكتاب في الجامع تحت تصرّف المسلمين، كما فيها أحيانا ذكرٌ لأمور أخرى متّصلة بأسباب الهبة أو التحبيس. ونجد في تلك الكتب ملاحظات أخرى تكمل الأولى على أفضل وجه: فقد كُتب في أماكن بارزة منها أسماء الذين نسخوا الكتاب من أصل من الأصول أو مخطوطة من المخطوطات ثمّ قابلوه بذلك الأصل أو بتلك المخطوطة. وهكذا نعلم بالذين كلّفوا بالنسخ، وبأصحاب المخطوطات، وبالعلماء الذين قُرئت المخطوطات في حلقاتهم، وبالعلماء الذين شهدوا ذلك.

وربّما علمنا أيضا بمن أُذن له في رواية نصّ من النصوص أخذه بالسماع عن أحد العلماء الثقاة.

وتُبيّن المخطوطات المحفوظة في مكتبة الجامع الكبير كيف كان العلماء في القيروان يتداولون النصوص بينهم، كما تُطلعنا أحيانا على الظروف التي أدّت، فيما بعد، إلى ظهور بعض الكتب الشهيرة التي يستشهد أصحابها بعلماءَ من قبلهم. والظاهر أنّ عددا من مخطوطات القيروان ليس بقليل قد صُنّف استنادا إلى دروس أولائك العلماء ومجالسهم، حتّى إنّ بعض المخطوطات مخطوط بيدهم؛ ويأتي تلاميذهم من بعدهم في قائمة الإسناد التي يذكرها واضع الكتاب في زمن لاحق. تأتي أسماء عدد كبير من مشاهير علماء القيروان في المخطوطات المحفوظة بالجامع الكبير، نكتفي هنا بذكر بضعة منهم على سبيل المثال فقط. فمنهم يحيى ابن سلاّم (124-200 هـ 742-815 م) الذي علّم التفسير واشتهر، وله فيه كتاب محفوظٌ أجزاءٌ منه في المكتبة، وهو من أوليات كتب التفسير؛ وعملٌ آخر من تأليف يحيى بن سلاّم، وهو كتاب «التصاريف»، ما كان ليصلنا لولا إحدى مخطوطات الجامع. ومنهم أسد بن الفرات (توفّي في 213 أو 214 هـ/ 828 أو 829 م)، وقد تتلمذ على يد الإمام مالك بن أنس بالمدينة ووضع «الأسدية» في فقه المالكية، كتابَه المشهور وأوّل عرض شامل لفقه الإمام مالك. وظهر بعد هذا الكتاب بقليل كتاب أبعدُ شهرةً وأبين أثرا في انتشار المذهب المالكي، وهو «المدوّنة الكبرى» لسحنون بن سعيد (توفّي في 240 هـ/ 854 م)؛ وكان ابن الحدّاد تلميذا له، وكتب شرحا للمدوّنة. ولابن الحدّاد عدّة مؤلّفات أخرى، وقف منها على مكتبة القيروان بعد وفاته (302 هـ/ 914 م)، وما زال بعضها محفوظا فيها.

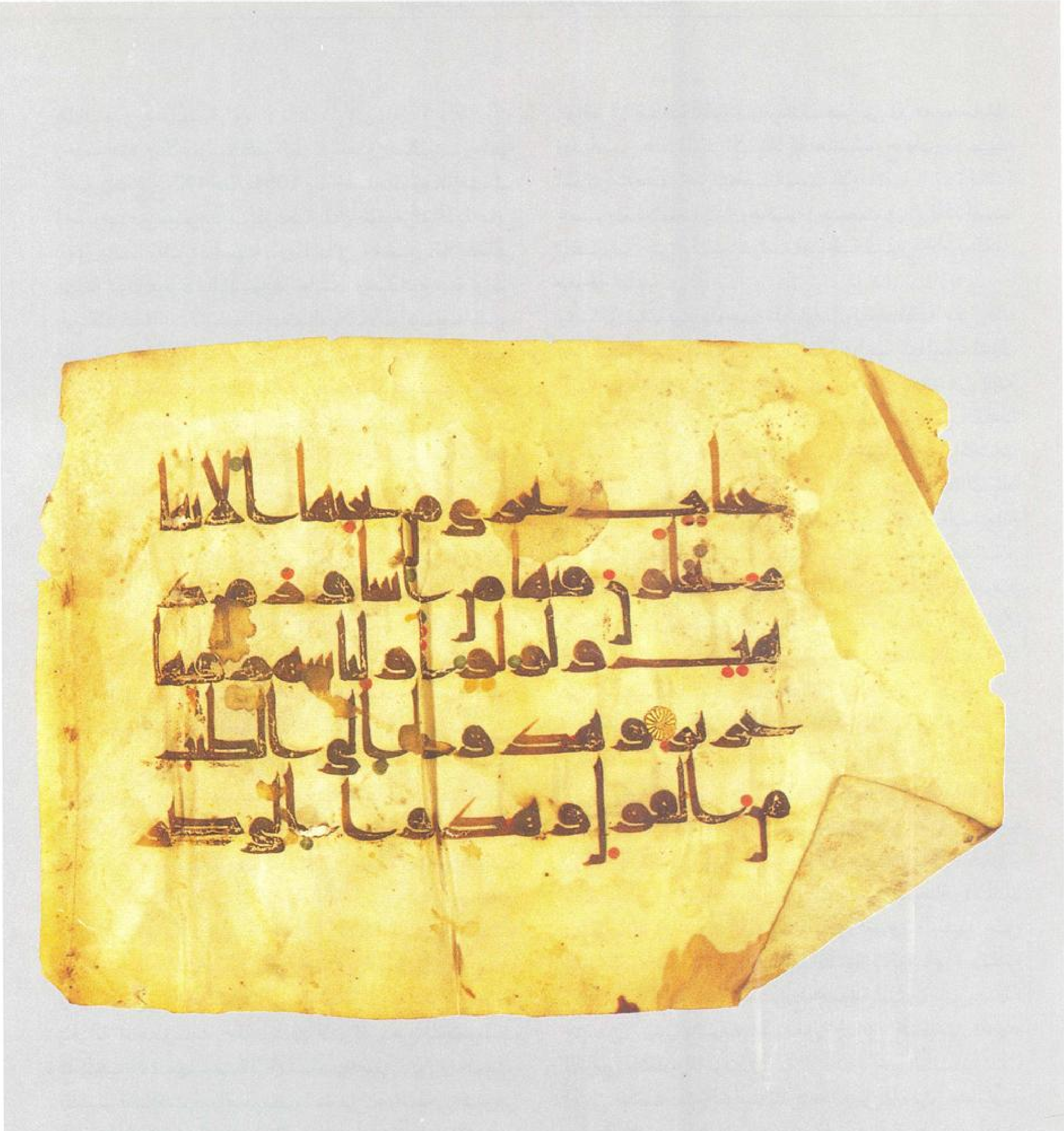
وكثيرا ما كان العلماء في ذلك الوقت ينسخون بأيديهم النصوص الهامة، وهذا يمكّن من تتبّع الخطوط والعلم بأصحابها؛ وقد ثبت الآن أنّ أربعة من الكتب تحتوي على خطّ المؤرّخ وكاتب السير المعروف أبي العرب.

هذا، ويوجد بمكتبة الجامع الكبير كتب ومصاحف وقفها لها المعزّ بن باديس (407-454 هـ/ 1016-1062 م)، وهو من بني زيري الذين استخلفهم الفاطميّون على إفريقية؛ فخرج المعزّ بن باديس على الخليفة الفاطمي المستنصر، وكان مقرّه بالقاهرة، فبعث إليه المستنصر بأعراب بني

هلال وبني سليم.
زحف هؤلاء الأعراب نحو الغرب ناهبين سالبين، وبلغوا القيروان عام 440 هـ/ 1054 م، فحاصروها زمنا ثمّ احتلّوها فنهبوا وخرّبوا، فكانت الضربة القاضية على القيروان، فأفل نجمها، وظلّت في العصور اللاحقة في مرتبة دون مرتبتها القديمة درجاتٍ، وتحوّلت مدينة تونس إلى قاعدة البلاد منذ ذلك الوقت. لم يَضِع، لحسن الحظ، إلّا القليل من المخطوطات الشاهدة بمجد القيروان القديم وازدهار العلوم فيها، وظلّ معظمها تحفظه جدران الجامع الكبير إلى عصرنا هذا.
في عام 1875، أمر محمّد الصادق، بايُ تونس، بأن تُنقل مخطوطات البلاد إلى تونس العاصمة وتُحفظ في جامع الزيتونة. لكنّ مخطوطات القيروان سَلِمت ولم تُنقل، ربّما لتدبير من بعض أعيان القيروان، كما سلمت من محاولة الفرنسيين إجراءَ تسجيل عامّ لمخطوطات البلاد في 1882.

وكان محمد بك بيرم أوّل من نبّه جمهور العلماء في عام 1897 إلى وجود بقايا من المخطوطات القديمة بالجامع الكبير؛ ومحمّد بيرم هو ابن رجل الدولة والعالم المشهور محمّد بيرم الخامس. واتّخذت إدارة الأوقاف في المدّة اللاحقة عددا من الإجراءات لتحسين ظروف حفظ المخطوطات ولترتيبها ترتيبا جديدا. وفي بداية الخمسينات، صُوِّرت أفلامٌ من بعض المخطوطات السهلة التحقيق وذات القيمة الفنية. لكنّ المعنيين بالأمر لم يتمكّنوا من إصدار فهرس واف؛ والسبب في هذا وفي بطء المعالجة العلمية للمخطوطات كان، من ناحية، صعوبةَ المادة وقدم عهدها وشدّة تجزّئها أحيانا، ومن ناحية أخرى عدمَ الإحاطة بخزانة المخطوطات جملةً. ذلك لأنّ كثيرا من المخطوطات المكتوب معظمها على الرق وبعضها على الورق العربي القديم قد لزقت أوراقها بعضها ببعض، وانمحى كثير من خطّها بفعل الماء والسوائل، واتّسخت اتّساخا شديدا، إلى حدّ أنّ قراءتها تتعذّر قبل أن يعالجها المرمّم. ولم تتحسّن حالة مخطوطات القيروان بنقلها جميعا إلى تونس وحفظها في المكتبة الوطنية، بل ربّما زادتها رطوبة تونس العاصمة سوءا على سوء.
انتهت مساع عديدة إلى إرجاع المخطوطات في عام 1983 إلى القيروان حيث حُفظت في مركز الدراسات الإسلامية الواقع في ضاحية المدينة بالرقّادة، مقرِّ بني الأغلب سابقا.
وقد أسّس هذا المركز الأستاذ إبراهيم شبّوح وأداره؛ ويتبع المركزَ متحفٌ، هو متحف الفنون الإسلامية، ونواةُ مكتبة عصرية للأبحاث. وهكذا اجتمعت في الرقّادة أنسب الظروف حتّى ذلك الوقت لمعالجة كنوز الجامع الكبير معالجة علمية.
وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه المعالجة والمحافظة على هذه المخطوطات القيّمة جدّا محافظةً دائمةً تتطلّبان أعمال الترميم المتقن والصيانة الشاملة، وهذا ما سعى إليه الأستاذ شبّوح من سنين عديدة. ونشير إلى أنّ هذا الأستاذ نجح في نشر أهمّ المصادر لتحقيق تاريخ المكتبة، وهو سجلّ من القرن الثالث عشر (1 . وقد بحث الأستاذ شبّوح عن الفنّيين وذوي الخبرة الذين يستطيع الاستعانة بآرائهم وأعمالهم على إنشاء معمل للترميم والصيانة، فوجدهم بمدينة غوتنغن الألمانية في المكتبة الحكومية والجامعية لولاية سكسونيا السفلى، وهم المرمّمون العاملون فيها تحت إشراف الخبير غونتر برنّال Günter Brannahl ذي الشهرة العالمية.
وقد كان برنّال أشرف منذ عام 1979 على مشروع لترميم مخطوطات إسلامية قديمة في صنعاء؛ وأنشئ هناك معمل ترميم لهذا الغرض، فزاره الأستاذ شبّوح في عام 1984، واتّصل بعد ذلك بقليل بالسيد كاله، سفير جمهورية ألمانيا الاتّحادية بتونس وقتئذ، وهو ابن المستشرق الألماني المعروف باول كاله. وتوصّلا معا إلى أنْ أبرمت الحكومتان الألمانية والتونسية في عام 1985 اتّفاقية في تعاون البلدين على صيانة مخطوطات القيروان الفريدة وترميمها. وكلّف الجانب الألماني بهذا المشروع مجموعة المرمّمين التي بمدينة غوتنغن، بينما يشرف عليه من الجانب التونسي المعهدُ القومي للآثار والفنون.
أُنشئ منذ ذلك الوقت بالرقادة معمل للترميم عصري، ومعمل لتصوير الأفلام، ومعمل فوتوغرافي، جميعها بحذاء القصر الذي فيه المخطوطات. وتدرّب في غوتنغن مصوِّرٌ للأفلام وثلاثة مرمّمين تونسيين. ويحرص المشرفون على المشروع على توجيه العاملين في الرقّادة، من مرمّمين

(1 سجلّ قديم لمكتبة جامع القيروان: مجلّة معهد المخطوطات العربية، جزء 1956/1376.2، ص339-372



ورقة من مصحف بالخط الكوفي على رق يعود إلى
القرن الثاني أو الثالث الهجري

وغيرهم، توجيها سليما وتدريبهم بالوسائل المتاحة محلّيا.
وتدير المرمّمة روزفيتا كيتسر القسم الأكبر من هذه الأعمال بعد أن عاجلت المنية غونتر برنّال في 1986؛ وهي سيّدة ذات حزم تعمل بدون كلل في غوتنغن وفي الرقادة على إنجاح هذا المشروع التونسي الألماني المشترك، يدعمها في ذلك الدكتور مراد رمّاح مدير قسم المخطوطات، والسيد بلقاسم حاجّي الرئيس الجديد لقسم الترميم بالرقادة.
وشرع في الآونة الأخيرة خبير بالخطوط من القيروان في إعداد فهرس مفصّل لمجموعة المخطوطات القديمة التي كانت في الجامع الكبير وللمخطوطات الأحدث عهدا التي حُصل عليها بعدما تحوّلت المجموعة إلى الرقّادة. وقد أنهى الآن فهرسة قسم كبير من المخطوطات، فيُؤمل أن يظهر أوّل مجلّد لهذا الفهرس عمّا قليل. هذا، ومن المقرّر أنْ قد عاد إلى القيروان في نهاية 1991 آخر التونسيين الذين تدرّبوا على الترميم في غوتنغن؛ وقد انتهت بعودته المساهمة الألمانية الكثيفة في هذا المشروع التي دامت ستّ سنين. بيد أنّ العمل المشترك في هذا المشروع وتعاون غوتنغن والقيروان عليه لم ينتهيا. وما نرى العمل في ترميم مخطوطات المكتبات والسجلاّت إلاّ متطلّبا لقدر عال من الدقّة والمثابرة.

وإذا كانت الغاية المحافظةَ على مجموعة فريدة من أقدم المخطوطات الإسلامية التي لا تُعوَّض، فلا بدّ من استخدام أحدث وسائل الترميم وطرائقه، ولا بدّ من متابعة أعمال الترميم زمنا طويلا. ويلزم عن هذا أن يجتهد فريق المرمّمين بالرقّادة في تحسين طرائق عملهم باستمرار وأن يظلّوا متّصلين بأصحاب الصنعة وذوي الاختصاص في تونس وخارجها. وقد عقد زملاؤهم بغوتنغن العزم على إمدادهم ومعاضدتهم.
ويؤمل أن تستمرّ المساعدة من جانب الحكومتين الألمانية والتونسية، ومن جانب مؤسّسات أخرى، كالمنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وجمعية صيانة مدينة القيروان. فلولا ما قدّمت هذه الجمعية من مساعدة مالية، ولولا ما بذل مستخدموها من مجهود، لما بلغ المشروع مستواه الحالي. كما أنّ نجاح هذا المشروع مرهون باستمرار دعم صاحبه الأوّل إيّاه، الأستاذِ إبراهيم شبّوح الذي ما فتئ يبذل كلّ المجهود اللاّزم لتسيير الأعمال، رغم كثرة مهامّه والتزاماته. وقد استلم في وقب لاحق إدارة المكتبة الوطنية بتونس، وهي مهمّة غير سهلة، فصار يدعم مشروع مخطوطات القيروان عن طريق المؤسّسة المركزية التي يديرها.
ليس من شكّ في أنّ مركز الأبحاث الجديد الذي أُنشئ في ضاحية القيروان، حيث قرّ بنو الأغلب، سيكون قاعدة للاشتغال العلمي الواسع بالمخطوطات المحفوظة فيه التي هي شواهد على علوم الإسلام وتاريخه. وبالفعل، شرع الآن علماء من القطر التونسي ومن الخارج في دراسة بعض المخطوطات. ومن جهة أخرى، فمن المأمول أن ينشأ تعامل مُجدٍ بين هذا المركز وكلية الآداب التابعة للجامعة التونسية التي افتُتحت بالقرب منه قبل بضع سنين، وعسى أن يكون هذا التعاون شكلا عصريا لبعض ما كان يجري بين علماء القيروان قديما. ●